شعب المقاطعين

خرجت قبل يومين للإدلاء بصوتي في الانتخابات، وذلك للمرّة الخامسة خلال ثلاث سنوات. ذهبت إلى صندوق الاقتراع أنا وزوجتي وأولادي.

كان المفروض أن نخرج إلى عرس الديمقراطيّة كما تصفه وسائل الإعلام، طبعًا بالجانب الصحيح لأنّ هناك من يصفه بعكس ذلك. كان المشهد غريبًا بعض الشيء، الشّارع مليء بالسّيارات المدجّجة بأعلام الأحزاب العربية المختلفة. الكل يبتسم بوجهك لفترة وجيزة حتى تدلي بصوتك، بعدها الله معك "خلّصت وظيفتك".

غريبون نحن! فنحن اقلّية حسب معطيات الدّولة، لكننا أقلّية بفكر الأغلبيّة، فنحن نريد ونريد وشهيّتنا مفتوحة وجوعنا كبير لتحقيق الإنجازات. إننا نرى التّطور والتّقدم من حولنا ولا نحظى إلّا بالفتات منه. محبطون نحن! محبطون أننا نريد الانخراط في الدّولة وبنفس الوقت لا نريد.

يعجبني مثلٌ صيني طالما اقتبسه في كثير من المحافل والنقاشات، المثل يقول: "كل النّاس يريدون الدّخول إلى الجنّة، لكن لا أحد يريد أن يموت".

نحن شعب المقاطعين، شعب المضربين! نحن نقاطع كل شيء. أذكر على مر التّاريخ كل الإضرابات والمقاطعات التي واكبت الصّراع العربي الإسرائيلي على مدار 75 سنة، وما زالت هذه الإضرابات والمقاطعات تتوالى من حدثٍ إلى

حدث. نعم نحن شعب المقاطعين وشعب المضربين، نقاطع الدّراسة ونضرب عن الذّهاب إلى المدرسة، نقاطع الانتخابات ولا نقاطع "زارا" وأصحابها، على فكرة مررت يوم الجمعة من جانب دكّان "زارا" في مجمع المالحة وكان لدي فضول كبير أن أرى أثر المقاطعة العربية لهذه الشّبكة، تفاجأت أنّ كل العاملين من العرب، كذلك طوابير الزّبائن تصل حتى المدخل.

أيّ تناقض نعيش به، تناقض يتبعه تناقض، فنحن نضرب عن الدراسة ولا نضرب عن المطاعم والمقاهي، نقاطع الانتخابات وحقّنا الديمقراطي ونتقدم بطلبات للحصول على الجنسيّة.

إنّ قضيّة المقاطعة متأصّلة في عاداتنا وتقاليدنا اليومية. فنحن نختلف مع جارنا فنقاطعه، ونختلف مع أخوتنا وأخواتنا فنقاطعهم، نختلف مع مديرينا فنقاطعهم أيضًا، نحن شعب تربّى على المقاطعة دون المواجهة، وقد نقلنا ذلك إلى السياسة أيضًا.

حاولت أن أبحث في تاريخ الشّعوب الأوروبيّة والآسيوية، عن أصول الإضرابات والمقاطعات، وصلت إلى الهند أيام "غاندي" الذي نادى بالعصيان المسالم، لم أجد شبيهًا لنا في الشّعوب الأخرى، فنحن نغلق أبواب مدارسنا وأبواب حوانيتنا وأسواقنا لأتفه سبب، رغم حاجتنا إلى التعليم والدّراسة ورغم أنّ اقتصادنا بأمسّ الحاجة إلى الإنعاش والتّنفّس.

هل الاضراب والمقاطعة دليل على عجزنا؟! هل هما دليل على انعدام القيادة والوعي؟! هل هما دليل على عجزنا بإيجاد حلول بديلة أخرى؟! أليس الاضراب والمقاطعة دليل على ثقافة العجز التي نحاول بثّها في أبنائنا؟! ألا تُمتحن الشّعوب بالأزمات والمصاعب؟! ألم تنهض ألمانيا واليابان خلال فترة قصيرة من تحت الحطام بعد الحرب العالميّة الثّانية، من خلال الجدّ والعمل والمثابرة؟!

كم أكره التحدّث عن السّياسة. لكنني لا أتحدّث لأن لديّ القوّة للتحدّث، إنما أتحدّث لأنني لا أملك القوّة على السّكوت. متى سننهض؟! متى سننفض عنّا غبار الستّين؟

هل نحن نكتب عن مستقبل البلاد، والدّولة، والإسلام، والعروبة! ونحن غير قادرين على تنظيم أحذيتنا والحفاظ عليها أمام أبواب مساجدنا!

ها نحن نهاجم سياسيينا ونقاطع الانتخابات بحجّة أنهم لا يفعلون شيئًا لنا ولم يساهموا بشيء، نقولها ونحن لا نعرف فعلًا ماذا فعلوا. نحن نريدهم مخاتير وليس أعضاء برلمان، نريدهم أن يهتموا بكل مناحي حياتنا من مسكن وملبس وسفر وعمل وحج وعمرة وغيرها من الأمور.

وعلى سيرة المخاتير، هل يمكننا أن ننهي حديثنا بدون طرفة:

كان سكّان قرية صغيرة يعيشون من لبن بقرة حلوب، إلى أن علِق رأسها بداخل جرّة ولم تستطع إخراجه. احتار أهل القرية بأمرهم، فهم يريدون الحفاظ على حياة البقرة دون أن يكسروا الجرّة. لجأ أهل القرية إلى المختار ليحل المشكلة.

تأمل المختار الجرّة والبقرة وبعد تفكير عميق نطق بالقرار:

"اقطعوا رأس البقرة" فقطعوه، ثم قالوا: "ما زال رأس البقرة في الجرّة، أدرِكنا بحكمتك، ابتسم المختار وقال: "اكسروا الجرّة". فكسروها وحرّروا رأس البقرة المقطوع، ليتنحى المختار جانبًا ويشعل سيجارته ويتأمل السّماء، فأتاه أهل القرية: "لا تحزن يا مختار، فداك البقرة والجرّة، فنظر إلى وجوههم بنفس الابتسامة، وقال:

"لست حزينًا على البقرة أيّها المساكين، ولا على الجرّة، لكنني حزين عليكم، كيف ستديرون أموركم من بعدي!".

عُذرًا أصدقائي المخاتير فأنا لا أقصدكم، ولكن العيب فينا ليس فيكم.

دمتم بكل خير

أ.أيمن جبارة